"بين بوابات القدس" لصبحي فحماوي.. قصص تجسّد معاناة الفلسطينيين

نخيل نيوز /خاص

يواصلُ الكاتب الأردني صبحي فحماوي انحيازه لفلسطين بوصفها قضيّة وطنية وقومية، من خلال مجموعته القصصيّة الجديدة "بين بوابات القدس"، التي ارتأى إهداءها إلى غزّة، "التي فجّرتَ دُمَّلا بحجمِ دولةٍ أسيرةٍ، فسال منه فيضٌ كبيرٌ من الصَّدِيدِ، ألهب حوله سطح الكرة الأرضية، فأعاد لها بعض صحتها".

وتقدم المجموعة صورة بانورامية للحياة الاجتماعية للناس خلال العدوان الصهيوني على غزّة، وعمّا يفعله بالناس بشكلٍ مباشرٍ، بل، بما فيها من تفاصيل، غير أن العدوان الصهيوني يجعلها حياة معجونة بالمعاناة والألم والفقد، وهكذا يطلقُ فحماوي صرخته ضدّ هذا العدوان الشّرس بشكلٍ فني، وضدّ ممارساته الهمجيّة في حقّ الناس، بعيداً عن الخطابيّة المباشرة.

صدرت المجموعة مؤخراً عن «الآن ناشرون وموزعون»، في عمّان، وجاءت بعيدة عن التكلّف، لصالح قربها من اليومي والمعيش، كما تمّ توظيف الكثير من الكلمات والعبارات الدارجة على ألسنة العامة في قصص المجموعة، في حين كانت الأمثال الشعبية حاضرة بقوّة بين ثنايا المجموعة.

أولى قصص المجموعة جاءت بعنوان "التوأمان"، في إحدى وعشرين صفحة، وتتحدّث عن "منير جبران"، أحد سكان مدينة خان يونس في جنوب قطاع غزّة، ومعاناته في مختلف تفاصيل الحياة اليوميّة، أسوة بسكّان القطاع جميعهم، "بسبب الحصار المفروض على القطاع من جميع الجهات؛ الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية، والمختوم بقُبّة سماوية تُغطي قِدْرَ القطاع الذي داخلهُ يغلي".

وكان "منير" قد رُزق بمولودين توأمين: ذكر وأنثى، بعد سبع سنوات من الانتظار، وفي حين يعيشُ الناسُ حيوات يومية بشكل بسيطة، نجدها تتعقّد تدريجياً في ظل العدوان الصهيوني فتصبح تحديات كبيرة، إذ يقول منير: "صحيح أننا نبحث عن رغيف خبز في هذه السنوات الماطرة بالمتفجرات الأمريكية والرياح المُغبرّة الكانسة لنفايات المدينة التي لم يعُد يجمعها أحد بعد هذا الشر المستطير الذي يتدفق على القطاع من جميع الجهات.. إنه دمار لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم..".

وفي مكان آخر من القصّة ينقل لنا "منير" صورة تجسّد جانباً مؤلما من معانة الأطفال في ظل الاحتلال، يقول: ("انظر انظر". يكلم نفسه قائلاً: الأطفال الذين لم يموتوا بعد، تجدهم يلعبون داخل حفرة القبور الجماعية اللانهائية الاتساع، اسمع، اسمع ما يقولون وهم يُقهقهون: "نريد أن نستغلَّ الوقت الضائع، فنحتفل ونضحك ونلعب ونتباطح، قبل أن نُدفن في هذه القبور". وأحدهم يصيح ضاحكاً: "دعونا نلعب قبل أن نموت.. الواحد يودع الحياة باللعب وليس بالبكاء". وطفلة في حوالي التاسعة من عمرها تلعب معهم، وهي تقول لطفل يقف إلى جوارها: "انظر يا يحيى، لقد لبست أحلى ثيابي، كي أموت، فأُودع الحياة وأنا جميلة".. وطفل قريب مني أسمعه يقول لرفيقه: "كلنا لها". كلام عجائز، وكأن أطفالنا يولدون كباراً كالعجائز.. لا، بالعكس، إنهم في قمة الذكاء والنشاط الذهني، إنهم مشاريع علماء، إذ أن علماءنا لا يتصدى لحيواتهم ويُقصِّرُ أعمارهم سوى اغتيالات الأعداء الجبناء).

ومن خلال قصّة "قصة حب راشيل كوري"، يعرّفنا فحماوي بتلك الصبيّة الأمريكية الجميلة، وهي من نساء منظمة حقوق الإنسان الدولية واسمها راشيل كوري، والتي (كانت تحب عشيقها، وحبيب عمرها "تود"، وأن هذا الحب استمر يتنامى بينهما، حتى اتفقا على عقد خطوبتهما، والالتزام بالزواج، ولكنها قالت له: "نني أنوي الذهاب إلى فلسطين لأتظاهر ضد الاحتلال الصهيوني المتخصص في جرائم قتل الأطفال والنساء الآمنات في بيوتهن، حسبما أشاهده في وسائل الإعلام من اضطهاد وتعذيب وقتل للفلسطينيين، وأنني سأعود من هناك منتصرة وقد أرضيتُ ضميري، فاستحققت معه أن أعيش حياة زوجية سعيدة، خاصة إذا استطعت أن أخفف من عذابات أولئك الفلسطينيين الذين تُجَرّفُ بيوتهم الطوبية المصابة بهشاشة العظام كل يوم، وأن أعمل على وقف تلك الجبال الآلية المجنزرة المجنونة المتحركة نحوهم، والتي لا تُبقي ولا تذر، سأشعر عندها أنني استطعت أن أدفع مهري لحبيبي تودّ على شكل ضمة من السلام، وأعتقد أنني بعد تحقيقه، سأفرح بزواجي منك، وسوف أستقرُّ بين يديك استقراري الأبدي، بعد أن أكون قد صنعت جنة من السلام هناك عند حافة الجحيم").

ومن خلال سرد شائق يعرّفنا فحماوي على جانب آخر لم نكن نعرفه عن تلك الفتاة، من خلال تأثيثه لقصّتها بمفرداتٍ تجسّد معاناتها، معاناة الذين أرادت أن تساندهم من الفلسطينيين.

يقول السارد في القصّة: (وعلى حاجز المطار عرفوا أنها ناشطة مقاومة من جماعة «السلام الآن» فتمت معاملتها بقسوة

مختلفة عن ترحيب موظفي مطارات العالم بها، إذ أن الصهاينة هناك كما هم في كل مكان تطؤه أقدامهم؛ متعجرفون، يتصرفون بمنتهى الشعور بالفوقية، متخيلين بجنون أنهم أبناء الله، مع أننا لا نعتقد أن الله يُخَلِّفُ شياطيناً مجرمين كهؤلاء، إذ تجدهم يعاملون من يمر من الفلسطينيين بالمطار أو من يدافع عنهم من الأجانب، وحتى الأمريكان أنفسهم بمنتهى الجلافة والغرور). أما نهاية القصّة فكلّنا نعرفها..

ومن خلال القصّة التي اتخذت المجموعة من اسمها عنواناً لها، "بين بوابات القدس"، يضعنا فحماوي في خضمّ معاناة المقدسيين جرّاء الاحتلال، فبينما (كان حشد من عشيرة الخالدي في حارة السعدية المشهورة بين باب الساهرة وباب العمود في القدس المحتلة يحضرون حفل زفاف أحد شبابهم مع إحدى صباياهم فرحين، اقتحم الغرباء الصهاينة بيوتهم المغلقة بالمفاتيح، وذلك تحت حماية قوة الشرطة الإسرائيلية، فكسروا الأبواب، ودخلوا الغرف، وتحصنوا فيها).

أما باقي القصّة فنتخيّل في ظلّ الاحتلال كيف يتخذ من الاعتداء على حقوق المدنيين العُزّل شريعةً ومنهاجاً وسلوكاً.

أما عناوينُ القصص الأخرى التي تضمنتها المجموعة فكانت على النحو الآتي: "المختار أبو طامس"، "مقام الشيخ مصطفى الولهان"، و"مُجرّد حوالة"، و"دموع لِفِرَاقِ الحبيب"، و"حريق آرون بوشنل"، و"أُمُّنا الغولة!"، و"قصة و"الثلاجة الفارغة"، و"ابن العم أولى بلحمته"، و"لا سائل ولا مسؤول!"، و"بحيرة البجع!"، و"وظيفة محترمة"، و"الوالد تَسَهّل!"، و"المُهَجّر"، و"الغزالة الطائرة!"، و"لذّة حنان الأب"، و"قاطرة الحريم!"، و"بوّاب على قارعة الطريق!"، و"أفاعي صينية!"، و"الهوليجانز".